﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التَّوبة: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا أخبَـرَ اللّهُ في الآيةِ السَّابقةِ عن قَصْدِ الكافرين وإرادتِهم في إزهاقِ الحقِّ والنُّور الذي جاء به الرَّسولُ ﷺ، وأنَّه سبحانَه يأبَى إلَّا أن يُتِمَّ نورَه، بيَّنَ هنا في هذه الآيةِ كيفيَّةَ هذا الإتمام، وأنَّه سبحانَه قَضَى بالأسبابِ الظَّاهرة والمعجزاتِ الباهرة إظهارَ هذا الإتمام لخلْقِه، بأن أرسلَ رسولَه بالهُدى ودِينِ الحقِّ؛ لِيُظْهِرَه على الدِّينِ كُلِّه[1].

مِن أعظم آيات إتمامِ هذا الدِّين بِـعـثَـةُ خـاتـمِ النَّبيِّين محمَّدٍ ﷺ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾: أصلُه مِن (ظهر)، ويدلُّ على قُوَّة وبُروز وانكشاف، ولذلك سُمِّيَ وقتُ الظُّهر والظَّهيرةِ بذلك؛ إذ هو أظهرُ أوقاتِ النَّهار وأضوؤُها، والأصل في ذلك كلِّه: ظَهْرُ الإنسان، وهو خِلاف بَطْنه، وهو يَجْمَع البُروزَ والقُوَّة والظُّهور، والظَّهيرُ: العَوْنُ والمعينُ، والمرادُ هنا: أرسلَ رسولَه لِيُعلِيَهُ بدينِه على سائر الأديان، فيَبْرُزَ ويَظْهَرَ عليها ظهورَ الغالبِ المؤيَّد[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللّهُ ﷻ هو الذي أرسل رسولَه محمَّدًا ﷺ بالقرآن العظيم، الذي اشتملَ على البيِّناتِ الهادِيَةِ والدَّالَّةِ على دين الحقِّ الإسلام، وقد فعل سبحانَه هذا الإرسالَ لِيُعلِيَ رسولَه على سائر أهلِ الأديان، ويُظْهِرَ دِيْنَهُ بما فيه من الحُجج والبراهينِ والأحكام

إرسـالُ اللـهِ رسولَه محمَّدًا ﷺ إعـلاءٌ وإظـهـارٌ لـهذا الدِّين

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/32.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (ظهر).

على سائر الأديانِ كُلِّها، رَغْمَ أنْفِ المُشركين وكراهَتِهم لذلك بالمُناوَئَةِ والمُعاداة.

وترشد الآية الكريمةُ إلى انتشارِ الإسلامِ في مشارقِ الأرضِ ومغاربها، وقد جاءت أخبارٌ كثيرةٌ تدلُّ على هذا المعنى، كقولِ النبـيِّ ﷺ: «**إنَّ** اللهَ زَوى لي الأرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي مِنْها»[1]. وإلى أنَّ ما بَعَث اللهُ به نبيَّه وخاتمَ رسلِه محمدًا ﷺ مشتملًا على بيانِ الحقِّ من الباطل في أسماءِ اللهِ وأوصافِه وأفعالِه، وفي أحكامِه وأخبارِه، والأمرِ بكلِّ مصلحةٍ نافعةٍ للقلوب والأرواحِ والأبدانِ، من إخلاص الدِّين للهِ وحده، ومحبةِ اللهِ وعبادتِه، والأمرِ بمكارمِ الأخلاقِ ومحاسنِ الشّيَم، والأعمالِ الصالحة، والآدابِ النافعة، والنهيِ عن كلِّ ما يضادُّ ذلك ويناقضُه من الأخلاقِ والأعمالِ السيئةِ المضرةِ للقلوبِ والأبدانِ والدنيا والآخرة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة فَصْلِ جملة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾ عمَّا قبلَها:

بـيـانُ كـيـفـيَّـةِ الإتـمـامِ المذكور قبلَها، بخاتمة الـرِّسـالات، والـشَّـرائـعِ الإلهيَّة المُنَزَّلة

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ بيانٌ وتقريرٌ لمضمون جملة: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، وفَصْلُها عمَّا قبلَها لِكمالِ الاتِّصال بينَ المُبَيِّنِ والمُبَيَّن، والمراد بالبيان: بيانُ كيفيَّةِ الإتمام المذكور في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، ووجْهُ البيان: تفسيرُ الإتمام المذكور بأنَّه ليس الإتمام الذي ينشأ عن قِلَّةٍ ونقْص، فدُفِع بهذا التَّفسيرِ هذا الإيهامُ؛ لأنَّ نورَ اللهِ المَضافَ إليه هو تامٌّ في نفسه، فلا يحتاج لإتمامٍ بمعناه المعروف، فعُرِفَ أنَّ إتمامَه هو إظهاره ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾، والإظهار: ليس

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2889).
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 192.

تكميلًا، بل هو دليلٌ على الكمال، والذي يُعينُ على هذا التَّوجيهِ أنَّه قال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾، ولم يقل: (ليُتِمَّه)، ويَصِحُّ حمْلُها على الاستئناف البيانيِّ كذلك، باستحضار سؤالٍ: كيفَ أتمَّ اللهُ نورَه؟ فيُجاب: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾. وعلى اعتبارها استئنافًا بيانيًّا فبَيْن الجُملتين شِبْهُ كمالِ اتِّصَال؛ لأنَّ الاستئناف البيانيَّ مَشوبٌ بالانقطاع؛ لأنَّ السُّؤال إنشاء، والجوابَ خبر، فبينَهما انقطاعٌ، ولكنْ بالنَّظر إلى المعنى فالسُّؤالُ والجوابُ متَّحِدان في المعنى، إذْ هما واردانِ على معنًى واحد، فكانت جملةُ الاستئنافِ البيانيِّ أقربَ إلى كمال الاتِّصال؛ لِكونِ اتِّصالِ المعنى أقوى مِن انقطاع اللَّفظ[1].

بلاغةُ الاستِهلالِ بالضَّمير والموصول:

توفُّرُ النَّظْمِ على تعظيمِ شأنِ الرَّسولِ ﷺ

افتتاحُ الجملةِ بضمير الجلالة ﴿هُوَ﴾، والموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾، أفاد القَصْرَ في الحُكم، أي: هو الذي أرسل وحدَه لا غيرُه، والقَصْرُ يُفيد تفخيمَ أمْرِ الإرسال، وأنَّه شأنٌ عظيم لا يَصِحُّ إمْكانُه إلَّا لله وحدَه، ولذا استَحَقَّ قَصْرَه عليه، والإتيانُ بالموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ أفاد أنَّ مضمون الصِّلة - وهو الحُكم بالإرسال - مُترتِّبٌ على الحُكم بالإتمام في قوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، فالموصولُ مُشْعِرٌ بعلِّيَّة الحُكم، والعِلِّيَّة بينَ تلك الجملةِ وما قبلَها، ليستْ مُستفادةً مِنَ الموصولِ استقلالًا، بل الموصولُ مُشْعِرٌ بها، بمعونةِ أنَّ جملةَ الإرسالِ بيانٌ لجُملةِ الإتمام.

ووجْهُ استفادةِ العِلِّيَّة مِنَ الموصول: دلالةُ الموصولِ على تفخيم الذَّات، وأنَّها لِعظَمَتِها وهيْمَنَتِها مَنوطةٌ بأسبابِ القُدْرةِ التي يتوقَّفُ عليها إتمامُ الدِّين، فكأنَّ العِلِّيَّةَ مُستفادةٌ مِنَ التَّفخيم الذي أفادَه الموصول، فكان الموصول دالًّا على كِلَيْهما[2].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/32، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/61، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/211، والدُّسوقيّ، حاشيته على مختصر المعاني: 2/504.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/173.

نُكْتَةُ العُدُول عنِ اسم الذَّاتِ الظَّاهر إلى الضَّمير:

الضَّميرُ رابطٌ بينَ الجُملتين، وفيه استنهاضُ الفِكْر لتَدَبُّر السِّياق

في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ﴾ افتَتَحَ الآيةَ بضمير الجلال، دونَ الاسم الظَّاهر، فلم يَقُل: (اللَّه الذي أرسل)؛ لكمالِ الرَّبطِ بينَ الجُملتين، هذِه وما قبلَها، لأنَّه لو افتَتَحَ بالاسم الظَّاهرِ لأوهَمَ انقطاعًا بينَ الجُملتين، فلِكَمالِ الاتِّصال بدأ بالضَّمير، لوصلِه بمرجِعِه في الجملة التي قبلَها: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ﴾، وفي التَّعبير بالضَّمير (هو) استنهاضٌ للفكر؛ لتدبُّر السِّياق، إذ إنَّ إرسال اللَّه رسولَه أَمَارةٌ مِن أَمَارات إرادةِ اللَّه في إكمال الدِّين وشرائعِه وإتمام نُورِه وانتشاره في العالمين، على الرُّغم مِن محاولات الكافرين.

بلاغةُ جِناسِ الاشتقاق:

الـرِّسـالـةُ هي أشـرفُ وَصْـفٍ للرَّسول ﷺ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾، جاء لفظُ الرَّسولِ – وهو المفعول – مِن مادَّة الفِعل: (أرسل)، ولم يقل: (أرسل مُحمَّدًا، أو نبيًّا، أو عبْدَه)؛ لإجراء وَصْفِ الرِّسالةِ عليه، لِتعيينِ أنَّه مُرسَلٌ لتلك الوظيفة، لِدفْعِ أن يكون إرسالُه إرسالًا عامًّا، فلا يَلزَمُ منه أن يَختصَّ بوصْفِ الرِّسالة، وفيه نوعُ إلزامٍ واحتجاجٍ على أهل الكتابِ السَّابِق ذِكْرُهم، فمَجِيءُ التَّركيب: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ مِن أصل الاشتقاقِ هو من المحسِّنات البديعيَّة، وفيه تأكيدُ معنى الإرسالِ، المؤكِّدِ معنى الواسطة بينَ اللَّهِ والخَلْق.

دلالةُ إضافةِ لفظ (الرَّسول) لضمير الجلالة:

اللـهُ يُـضـيـفُ رسـولَـه إليـه؛ لِـيُـخْـبِرَ بتأييدِه وَوِلايته له

أضافَ اللَّهُ سبحانه الرسولَ إليه بقوله: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾؛ وذلك للنَّصِّ على معنى انتساب الرَّسول ﷺ إلى اللَّه سبحانه، وللتَّنويه على ما يَستَتْبِع ذلك مِن ولايةِ اللَّهِ له، ونُصرتِه إيَّاه، كأنَّ المعنى: أرسلَه ليَنصُرَه ويُؤَيِّدَهُ، إذْ هو رسولُه، وما أفادتْهُ الإضافةُ مِن معنى الانتساب المُستَلْزِم للتَّأييد، لازِمٌ مِن لوازم الإباء المذكور في قوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، وتابِعٌ له، ومترتِّبٌ عليه، ولا يخفى أنَّ

إضافةَ لفظِ الرَّسولِ لضمير الجلال، تشريفٌ لشأن الرَّسول، وتعظيمٌ لقدْره، وتنويهٌ بمكانته، إذِ المضافُ للعظيم لا يكونُ إلَّا عظيمًا[1].

دلالةُ تعدِيَةِ الإرسال بالباء:

الباء في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ للمصاحبة، أي: مصاحبةِ الهُدى واشتراكه معَ الرَّسول في الإرسال، ولا يلزمُ مِنَ المصاحبةِ والمعيَّة التَّزامُنُ بينَ الهُدى والرَّسول حالَ الإرسال، أو الباءُ للإلصاق، فيكون الهُدى حالَ إرسالِ الرَّسولِ لَصِيقًا به[2].

تعظيمُ شأنِ الرَّسول بوصْفِ الرِّسالة ووظيفةِ الهدايةِ وإبلاغِ الحقِّ

سِرُّ تعديَةِ الإرسال إلى (الهُدى)، دونَ (النُّور):

تعديَةُ الإرسالِ للهُدى في قوله: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾، ولم يَقُل: (أرسل رسولَه بالنُّور)؛ اطِّرادًا مع قوله قبلَه: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾؛ للدّلالةِ على عمومِ النُّور وخُصوصِ الهُدى، ولذَا أُضيفَ النُّور لاسم الذَّات ﴿ٱللَّهُ﴾، فالهُدى بعضُ هذا النُّورِ، ودِينُ الحَقِّ أثَرٌ مِن آثار هذا النُّور، فالهُدى ودينُ الحَقِّ مِنَ النُّور، لا أنَّهما النُّورُ[3].

نورُ اللهِ مِنْ صِفَاتِه، والدِّينُ والهُدى مِن آثارِ نورِه

معنى العطف:

عَطْفُ الدِّين الحَقِّ على الهُدى في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ من باب عطفِ العامِّ على الخاصِّ، وعطفِ الشَّيءِ على صِفَتِه، فالدِّينُ الحَقُّ لا يكون إلَّا هاديًا، ولا يتّصِفُ بالهُدى إلَّا الدِّين الحَقُّ، والعطفُ لتعديدِ الصِّفات، فكأنَّه قيل: (أرسل رسوله بدينِ الهُدى ودِين الحَقِّ)، أي: الدِّينِ المُتَّصِفِ بهما[4].

الدِّينُ الحَقُّ لا يكون إلَّا هاديًا

نُكْتَةُ تقديمِ (الهُدى) على ﴿دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾:

جاء الهُدى مُقَدَّمًا على الدِّين الحَقِّ، تسجيلًا على اليهود والنَّصارى أنَّهم على ضلالة فيما زَعَمُوه بشأنِ عُزَيْرٍ وعيسَى عليهما السلام،

تقديمُ الدَّرْءِ والتَّخْلِيَةِ على التَّحسينِ والتَّحلِيَة

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3287.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3287.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/211.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/406.

فكأنَّهُ يقول لهم: لستُم على الهُدى فيما افتَرَيْتُمُوه، ثمَّ قرَّرَ لهم ما ينبغي أن يكونوا عليه، وهو الدِّين الحَقُّ، فكأنَّه يُخاطبُهم باستدفاع ضلالتِهم بالهُدى أوَّلًا، ثمَّ اعتناق الحَقِّ ثانيًا، فهو من بابِ تقديم الدَّرْءِ والتَّخْلِيَة، على التَّحَقُّقِ والتَّحْلِيَة.

بلاغةُ اصطفاءِ التّركيبِ:

في جملة: ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ مُراعاةٌ لتكوين الفِطرةِ في الإنسان، فإنَّ الإنسانَ لا يعتنِقُ الدِّينَ الحَقَّ، ولا يَثْبُتُ عليه، إلَّا بالاهتداءِ إليه بِحُسْنِ التَّوجيهِ والدّلالة، وتَبَيُّن الجِهةِ المستقيمةِ، فالهُدى: هو العلمُ النافعُ، الذي هو آلةُ الوصول للدِّين الحَقِّ، ففي التَّركيبِ جمْعٌ بينَ الدَّليل (الهُدى)، والمدلولِ عليه: (دين الحقِّ)، الذي هو العملُ الصالحُ، وفي التَّركيب - أيضًا - جمْعٌ بينَ ما يُورِثُ سَكِيْنَةَ الباطنِ بالهُدى، وثباتَ الظَّاهِر بالحَقِّ، وفيه: تعليمٌ بأنَّ الحقَّ مُلْتَمَسٌ بأسبابِه الهاديَة مِنَ الحُجَجِ والبراهين المستقيمة، ومَجيءُ التَّركيب على تلك الصُّورة فيه إيماءٌ إلى توافُقِ الباطنِ مع الظَّاهر، فالهُدى ألصقُ بالباطن، والدِّينُ الحَقُّ ألصق بالظَّاهر، والذي يُعينُ على هذا التَّوجيه: أنَّ الهُدى يَنْبني في أصله على اتِّباع الدّلالةِ، وموافقةِ الاتِّجاه، ولا يكون ذلك إلَّا باتِّجاه الدَّاخِلِ نحوَ المُراد، وأمَّا الدِّينُ الحَقُّ: فهو الثَّابت، والثُّبوتُ: صِفةٌ ظاهرةٌ، والمُتَّصِفُ به مُتلَبِّسٌ به على نحوٍ ظاهر، وهيئةٍ ظاهرة، ولذا قد يُرَى الشَّخْصُ على الدِّين الحَقِّ، وهو غيرُ مُهْتَدٍ به في حقيقةِ الأمر[1].

التَّدَيُّنُ الحقيقيُّ ما يَجتمعُ فيه سكينةُ الباطِن مـــع صَـــلاح الظَّاهِر

دلالة اللَّام في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾:

جُملة: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ تعليليَّةٌ لِما قبلَها، وهي بيانٌ للغايةِ من إرسال الرَّسول، واللَّامُ الجارَّة للتَّعليل أو للعاقبة، وعلى أنَّها للتَّعليل يكون

إذا أراد اللهُ شيئًا هيَّأ أسبابَه، وحَقَّقَ عواقِبَه

(1) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/355، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/32، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/406.

المعنى: أنَّه أرسله لِيُظْهِرَهُ على الدِّين، فإرسالُ الرَّسولِ عِلَّةٌ للإظهار، ومعنى أنَّها للعاقبة، أي: جَعَلَ عاقبةَ الإرسالِ أن يُظهِرَه على الدِّين كلِّه. والفَرْقُ بينَ اللَّامَيْن: أنَّ لام العاقبة أَعمُّ، فقد يكون ما قبلَها سببًا لمدخولها، وقد لا يكون، ولامُ التَّعليلِ لا يكون ما قبلَها إلَّا سببًا لمدخولها[1].

معنى تَعْديَةِ الإظهارِ بحرف ﴿عَلَىٰ﴾:

الـدِّيـنُ الـحـقُّ يَـغـلِـبُ غـيـرَه في صِـدْقِ حُـجَـجِـهِ وسلامَةِ دلائله

تَعْدِيَةُ الإظهارِ في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ بحرف ﴿عَلَىٰ﴾؛ لِتضمينِه معنى النَّصر والتَّفضيل والغَلَبَةِ والهَيْمَنَة، بما أفاده حرف ﴿عَلَىٰ﴾ مِنَ الاستعلاء المجازيِّ، فهو دينٌ يَغلِبُ غيرَه مِنَ الأديان في صِدْقِ حُجَجِه، وسلامةِ دلائلِه، وفي التَّعدِيَة بحرف الاستعلاء بُشرى للمؤمنين بالإسلام، إذِ الإخبارُ باستعلاء الدِّيْن مِنْ شأنِه أنْ يُفرِح أتْباعَه، والخبَر مِنَ اللّٰه بما يقع في المستقبل وَعدٌ مُحَقَّقٌ، يُقوِّي الرَّجاء، ويُثَبِّتُ القلوب[2].

دلالةُ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل:

اللهُ وعَدَ عبادَه أنْ يُريَهُم آياتِ إظهارِ دينِه

تركيبُ ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ مُكوَّنٌ مِن: لام التَّعليل الجارَّة، و(أنْ) المصدريَّةِ المحذوفة جوازًا، والفعلِ (يُظْهِر)، والمصدرُ المؤوَّل مِن (أنْ والفعل) في محلِّ جَرٍّ باللَّام، ونُكْتَةُ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل - هنا - تخليصُ الفعلِ للاستقبال، فـ (أنْ) إذا دخلتْ على المضارع خَلَّصَتْهُ للاستقبال، وفائدةُ ذلك: تنزيلُه منزِلَةَ الوعد، وغَرَضُ التَّركيب: إرادةُ الزَّمَنِيَّة؛ ليستحْضِرَ المؤمنُ حركةَ المعنى جاريةً في الزَّمن، وهو أحضُّ على الاعتبارِ وزيادةِ الإيمان، بشهودِ الوعدِ يتحَقَّق ويَسْتَمِرُّ، بخلافِ المصدر الصَّريح (الإظهار)، فإنَّه دَالٌّ على مجرَّد الحَدَث، فدلالتُه مُصمَتَةٌ، وأمَّا المصدر المؤوَّل فذو حيويَّةٍ في عمَلِه وجريَانِه[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3287.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/173.
(3) صافي، الجدول: 10/327، والخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 5/161.

مَرجِعُ الضَّمير في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾:

الرِّجالُ وسائطُ اللهِ في تبليغ دينه

الضَّمير في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ إمَّا أن يعود على أقرب مذكور: ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، وإمَّا أن يعود على (الرَّسول) على قول ابْنِ عَبّاسٍ ﷺ، والأَوْلَى أنْ يعود على (الرَّسول)؛ لأنَّه مفعول الإرسال، والدِّين معَه، فبإظهاره يَظهر الدِّين، ولا يكون إظهارُ الدِّين إلَّا به، ولا يخفى أنَّ الدِّين يظهر بالرِّجال، فلا بدَّ مِن أنْ يَظهرَ بواسِطةٍ لا بنفسِه، فثبَتَ أنَّ أصل الظُّهور للواسِطةِ لا له.

وأمَّا عَوْدُ الضَّمير على (دين الحقّ) فيُلاحظُ فيه أنَّ الدِّين معطوفٌ على (الهدى)، فكلاهما مع الرَّسول في إرساله، وقد تقرَّر أنَّهما متغايران، فالرَّسول جاء لإظهار الهدى، وإظهارِ الدِّين كذلك، فكلاهما مقصودٌ بالإظهار، ولم يقل في الآية: (لِيُظهرَهما)، وليس عَوْدُ الضَّمير على أحدهما بأَولى مِن عَوْده على الآخر، فلو قيل: إنَّ الضَّمير عائد على دين الحَقِّ، فلِمَ لا يُقال: إنَّه عائد على لفظ (الهدى)، فكان عَوْدُه على (دين الحقِّ) قلقًا في موضِعِه، فكان عَوْدُه على لفظ: ﴿رَسُولَهُۥ﴾ أَولى[1].

بلاغة التَّركيب في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى﴾:

الإسلامُ دينٌ مَنيعٌ لا يُغالَب

التَّعبير بالظُّهور في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى﴾ أفاد أنَّه يُغالِبُ طرَفًا آخَرَ موجودًا حاضِرًا، وهو سائر الأديان، ونُكْتَةُ ذلك: أنَّه لا يَلزمُ مِن ظهور الإسلام أنْ يَنْتَفِيَ نُفُوذُ الأديانِ الأُخرى وانتشارها، فضلًا عنِ انقراضِها وزوالِها، بل المفهومُ أنْ يُغالِبَها الإسلامُ في نفوذِها بنفوذِه، ويَدحرَ سلطانَها بسلطانِه وبُرهانِه، فتَخُورُ أمامَه ليَظْهرَ عليها أو يَصمدَ أمامَ نفوذِها، فلا تَظهَرُ هي عليه[2].

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/254، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/406.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/174.

دلالة (ال) في قوله: ﴿ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾:

ما مِـنْ ديـنٍ إلَّا ودِيـنُ الإسـلام يَعلوه

(ال) في قوله: ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لاستغراق الجنس، والاستغراقُ هنا استغراقٌ حقيقيٌّ، بمعنى: أنَّه ما مِن دينٍ إلَّا والإسلامُ يَعلُوه، ولأجل هذه الاستغراقيَّةِ جُعِل اسمُ الدِّين خالصًا في مُسمَّاه وحقيقتِه في الإسلام، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19]، كأنَّه بظهورِه على سائرِ الأديان لم يُبْقِ لِدِينٍ منها حظًّا في اسمِه، فسَلَبَ منها معنى الدِّيْن في الاسمِ والمُسمَّى، والمراد بالدِّين: إمَّا الدِّينُ نفسه، أو أهلُ الدِّين، على حَذْف مضاف، والتَّقدير بحذف المضافِ مُتوجِّهٌ على اعتبار عَوْدِ الضَّمير في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ على (الرَّسول)، أي: أرسل الرَّسولَ ليُظْهِرَهُ على أهلِ الأديانِ الأُخرى فيَخْذُلَهم، فتُخْذَلَ بخِذْلانِهم أفكارُهم وأديانُهم، فيكون ظهورُه عليهم ظهورًا على الدِّينِ كلِّه[1].

بلاغة التَّوكيد وأثرُه في المعنى:

لا غُنْيَةَ في دينٍ وضعيٍّ أو كِتابيٍّ عـن الإسـلام الدِّينِ الحقّ

التَّوكيدُ بلفظ (كلِّه) في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ للمبالغة في الاستغراق الحاصل مِن (ال) في ﴿ٱلدِّينِ﴾، ونُكْتَةُ الإتيانِ بالتَّوكيد مع حصولِ الغُنْيَةِ عنه باستغراق الجنس في لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾ لسببَيْنِ؛ الأوَّل: لِدَفْعِ تَوهُّم أن تكون (ال) في ﴿ٱلدِّينِ﴾ لغير الاستغراق، كأن تكون للعَهْد، فتفيدُ الخصوصَ وليس العمومَ، فلمَّا أكَّد ذلك بصيغةِ العموم، ثبَتَ أنَّ (ال) للاستغراق من غير إيهام. الثَّاني: أنَّ لفظ ﴿كُلِّهِۦ﴾ جعل لفظَ ﴿ٱلدِّينِ﴾ يتناولُ الأديانَ جميعًا، فيدخلُ فيه كلُّ دين له أصلٌ صحيح، كالشَّرائع السَّماويَّة كافَّة، ويدخل فيه ما ليس دِينًا في أصلِه، ولا أصلَ له، بل هو دِيْنٌ بحسَبِ اعتبارِ مُعتَنِقِيه له؛ كالأديان الوضعيَّة التي تملأ الأرض، ولا صِلةَ لها

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/277.

بمصادرِ الدِّيْن الحقيقيَّة، فجاء التَّأكيدُ ليتناولَ الأديانَ في معناها الشَّرعيِّ والوضعيِّ.

دلالة تكرارِ جملةِ الشَّرط:

مَنْ يُعادِي اللهَ لا يُحتَرَم

تكرارُ جملةِ الشَّرط: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، بعد قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ﴾؛ مُراعاةً لمضمون السِّياق، فهو مُشتَمِلٌ على التَّحدِّي والمُغالبَة، والوعدِ بإظهار الإسلام على سائر الأديان، وإظهارِ الرَّسول ﷺ على رؤساء المِلَلِ وأتباعِها، وفي هذا ما يستدعي كراهِيَةَ الخصوم، ويَستفزُّ فيهم مشاعرَ الغيظِ والبُغْض، فأُعِيْدَ الشَّرطُ بنحوِه السَّابق في الآية السابقة في قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ لتوفُّرِ دَاعِيْهِ الذي يَقتضيه، إتْباعًا لحُكم الإظهارِ المذكور، بدَفْعِ ونقْضِ ما هو مَظِنَّةُ نَقْضِه واعتراضِه، وهو حال كَراهِيَة الخصومِ لذلك.

بلاغة خَتْمِ الفاصلة:

المُشرِكُ أَعْنَدُ مِنَ الكافِرِ وأظهرُ خصومةً؛ لكون الآيةِ في معنى الغَلَبَةِ والدَّفْع

في خَتْمِ الفاصلةِ بلفظِ: ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ثلاثُ دلالات؛ الأُولى: اطِّرادًا معَ السِّياق في تقرير ما تضمَّنَه مِن معنًى، فالآياتُ واردةٌ في الحديثِ عن أنماطِ الشِّرك وأصناف المُشركين، فهناكَ المشركون الوثنيُّون الذين لا أصلَ لدينِهم، فوثنيَّتُهم أشْبَهُ بالدِّيانات الوضعيَّة اليوم، وقد قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، وهناكَ المشركون مِنَ اليهود والنَّصارى، الذين وَصَفَهم بالشِّرك فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وقال هنا: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، أي: أصحاب تلك الدِّياناتِ مِنَ الوثنيِّين المشركين، الذين يُمثِّلون الأديانَ التي لا أصلَ سَماوِيَّ لها، واليهودُ والنَّصارى المشركون الذين يُمثّلون الدِّين ذا الأصلِ السَّماويِّ. الثَّانية: إنَّما اختارَ هنا وَسْمَهُم بوَصْفِ الشِّرك دونَ لفظِ

الكُفر، كما في جملة الشَّرط السَّابقة: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، أو لم يجعل أحدَ الوصْفَين مكانَ الآخَر؛ لأنَّ لفظ الكُفْر عامٌّ، فختَمَ به المرادَ العامَّ، وهو قوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، فإتْمامُ اللهِ لنُورِه حاصِلٌ رَغْمَ أَنْفِ كلِّ كافرٍ، كَرِه ذلك أو لم يَكْرَهْ، وأمَّا المُشرك فهو أَخَصُّ مِنَ الكافِر؛ لأنَّ الكافِر قد يَجْحدُ ويُنْكِر من غير أنْ يَتَّخِذَ معبودًا آخَرَ يُشرِكُه معَ اللهِ، ولذا كان المُشْرِكُ أكثرَ عِنادًا، وأظهرَ خصومةً، لأنَّه يكفر بالرَّحمن، ثُمَّ يَتّخِذُ نِدًّا يَعْبُدُهُ، فكأنَّه يُعانِد بهذا النِّدِّ، وكان الختْمُ به أنسبَ هنا؛ لأنَّ الآية في معنى الغَلَبةِ والدَّفْع، الذي تضمَّنَه قولُه: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، فلا بُدَّ لهذا المعنى مِن مَغلوبٍ، كان يُخاصِم ويُعانِد ويتَصَدَّر كَطَرَفٍ مُنازِعٍ، حتَّى يُظْهَرَ عليه ويُغلَبَ، فاصطفى الوصفَ بالإشراك للدّلالة على هذا المعنى.

الثَّالثة: أنَّ وَصْفَهم بالشِّركِ بعدَ وَصْفِهم بالكُفرِ، للدّلالة على أنَّهم ضَمُّوا الكفْرَ بالرَّسولِ إلى الكفرِ باللهِ، وهو الإشراك[1].

علَّةُ ذكر المشركين، واختصاص الآية السابقة بذكر الكافرين:

مناسبة كراهة المشركين لظُهور الدِّين، وكراهةِ الكافرين لإتمام نـورِ الـلـه مِـن قديم الدَّهر

وخُصَّ المُشركونَ في قوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ بالذِّكرِ؛ لأنّها كَراهَةٌ مُختَصَّةٌ بِظُهورِ دين مُحَمَّد ﷺ، وخُصَّ الكافِرونَ قَبلُ؛ لأنَّها كَراهَةُ إتمامِ نورِ اللهِ في قَديمِ الدَّهرِ وباقيه، يَعُمُّ الكَفَرَةَ مِن لَدُن خَلقِ الدُّنيا إلى انقراضِها، ووقعتِ الكَراهَةُ والإتمامُ مِرارًا كثيرَةً[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

لِيُظْهِرَهُ ولِيُعلِيَهُ:

الظُّهور: خِلافُ الخفاء، والعُلُوُّ: خِلافُ السُّفْل

إعلاءُ الشَّيءِ: جَعْلُه بمقامِ العُلُوِّ، وإظهارُه: جَعْلُه بمقامِ الظُّهور، والعُلُوُّ: هو ارتفاع الشَّيءِ فوقَ شيءٍ تَحتَه أو أدناه، والظُّهور: هو بُروزُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/445، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/62.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/407.

الشَّيء عنِ الشَّيءِ، بحيثُ يكون ظاهرًا منه ومُنْكَشِفًا عنه، فالشَّيءُ الظَّاهِر: هو الذي حصَلَ جِهةَ الظَّهْر، بحيث لا يَخفَى، سواء كان مُرتفعًا أم غيرَ ذلك، والشَّيء العالي: هو المرتفعُ، سواء كان ظاهرًا أم مُستَترًا، فالجِهةُ بينَ العُلُوِّ والظُّهور مُنْفَكَّة؛ لِكونِ الظُّهورِ خلافَ الخفاء، والعُلُوِّ خِلافَ السُّفْلِ، إلَّا أنَّ (ظَهَرَ) إذا عُدِّيَ بـ (عَلَى) ضُمِّنَ معنى العُلُوِّ والارتفاع، مع دلالتِه الزَّائدةِ على الظُّهور والانكشاف والبُروز، فمعنى: (ظَهَرَ عليه) إذا علاه عُلُوًّا لا يَخفى، بل ينكشفُ ويَبْرُز، والظُّهور مِن هذه الجِهةِ الخاصَّةِ أَخَصُّ مِنَ العُلُوِّ، إذِ الأَخيرُ لا يَلزَمُ عنهُ انكِشافٌ أوِ اسْتِتَارٌ، معَ اشتراكِ كُلٍّ مِنَ الظُّهور والعُلُوِّ في الجانب المعنويِّ والحسِّيِّ، فالعُلُوُّ منه حِسِّيٌّ ومعنويٌّ، والظُّهور كذلك[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (ظهر، علو).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»